

دلائل الإعجاز

واعلم أنَّ من الكلام ما أنتَ تعلمُ إذا تدبَّرتَه أنَّ لم يحتجْ واضرعه إلى فكرٍ ورويةٍ حتى انتظمَ له . بل ترى سبيلَه في ضمِّ بعضه إلى بعضٍ سبيلَ مَنْ عَمَدَ إلى لآلٍ فخرطَها في سلكٍ لا يبغى أكثرَ من أن يمنعَها التفرُّقَ وكمن نَصَدَّ أشياءَ بعضَها على بعضٍ لا يُريدُ في نَصَدِّه ذلكَ أن تجيءَ له منه هيئةٌ أو صورةٌ بل ليس إلا أن تكونَ مجموعةً في رأيِ العَيْنِ . وذلكَ إذا كان معنَاكَ معنى لا يحتاجُ أن تصنعَ فيه شيئاً غيرَ أن تعطفَ لفظاً على مثله كقولِ الجاحظِ : " جندُكَ اللُّهُ الشُّبْهَةُ وعصَمُكَ مِنَ الْحَيِّرَةِ وجعلَ بينَكَ وبينَ المعرفةِ سَبَباً وبينَ الصِّدْقِ سَبَباً وجبَّ إِلَيْكَ التَّثَبُّتُ وزِيَّانٌ في عينِكَ الإِصْفَاءُ وأذاقَكَ حلاوةَ التَّسْقُوتِ وأشعرَ قلبَكَ عِزَّ الْحَقِّ وأودَعَ صدرَكَ بَرْدَ الْيَقِينِ وطَرَدَ عَنْكَ ذُلَّ الْيَأْسِ وعَرَّفَكَ ما في الباطلِ مِنَ الذَّلِيلَةِ وما في الجهلِ مِنَ الْقِلَّةِ " . وكقولِ بعضهم : " دَرَّ خُطِيبٌ قَامَ عِنْدَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَفْصَحَ لِسَانَهُ وَأَحْسَنَ بَيَانَهُ وَأَمْضَى جَنَانَهُ وَأَبْلَسَ رِيقَهُ وَأَسْهَلَ طَرِيقَهُ " . ومثله قولُ النابغةِ في الثَّنَاءِ الْمَسْجُوعِ : " أَيُّفَاخِرُكَ الْمَلِكُ اللَّخْمِيُّ فَوَايَ لِقَافَاكَ خَيْرٌ مِنْ وَجْهِهِ وَلِشِمَالُكَ خَيْرٌ مِنْ يَمِينِهِ وَلَأْخُمُ مَصُّكَ خَيْرٌ مِنْ رَأْسِهِ وَلَخَطْوُكَ خَيْرٌ مِنْ صَوَابِهِ وَلَعِيُّكَ خَيْرٌ مِنْ كَلَامِهِ وَلَخَدْمُكَ خَيْرٌ مِنْ قَوْمِهِ " . وكقولِ بعضِ البلغاءِ في وصفِ اللسانِ : " اللسانُ أَدَاةٌ يَظْهَرُ بِهَا حَسَنُ الْبَيَانِ وَظَاهَرُ الْخَبَرِ عَنِ الضَّمِيرِ وَشَاهِدُ نَبْئِكَ عَنْ غَائِبِ وَحَاكِمٌ يَفْصَلُ بِهِ الْخُطَابُ وَوَاعِظٌ يَنْهَى عَنِ الْقَبِيحِ وَمُزِيَّانٌ يُدْعُو إِلَى الْحَسَنِ وَزَارِعٌ يَحْرِثُ الْمُودَّةَ وَحَاصِدٌ يَحْصِدُ الصَّغِينَةَ وَمُؤَلِّهُ يُوْنِقُ الْأَسْمَاعَ " .

فما كانَ من هذا وشبهه لم يجبَ به فضلٌ إلا إذا وجبَ إلا بمعناهُ أو بمُتُونِ أَلْفَاظِهِ دونَ نظْمِهِ وتَأْلِيفِهِ وذلكَ لأنه لا فضيلةَ حتَّى ترى في الأمرِ مَصْنَعاً وحتى تجدَ إلى التَّخْيُّرِ سبيلاً